أمثالنا الشعبية دور البيئة في صياغتها وانتشارها
دراسة جغرافية

إعداد
أ.د. مجدي عبدالحميد محمد السرسي
أستاذ الجغرافيا الاقتصادية – جامعة عين شمس

مقدمة :

لاشك أن للبيئة الجغرافية بأنماطها المختلفة وعناصرها المتنوعة دور مهم في خلق أهم مصادر الإلهام والإبداع لدى الإنسان المصري مع اختلاف طوائفه ، واهتمامته، وبالتالي اختلاف ردود أفعاله ردود أفعاله . ويرجع ذلك في المقام الأول إلى وجود علاقة وطيدة بين الإنسان وبيئته المحيطة به ومن هنا كان للتفاعل بين الإنسان المصري وبيئته الأثر الواضح في خلق أشكال الإبداعات المختلفة .وبقدر اختلاف ظروف البيئة وتنوعها ، بقدر تعدد وتنوع أشكال الإبداع والإلهام ، ولا نغالي إذا قلنا إن العلاقة المتبادلة بين الإنسان المصري وبيئته الجغرافية بعناصرها المختلفة ، هي صاحبة الفضل الأول في تشكيل وصياغة فكره وتراثه الفني على مر العصور .

وتتميز البيئة المصرية بالتنوع الواضح فيما بين ذلك الشريط الضيق الممتد من حدود مصر الجنوبية ، حتى البحر المتوسط شمالاً ، وهو وادي النيل ودلتاه بتربته الغنية الخصبة ، وبين تلك الصحراوات الحارة الجافة الممتدة على جانبي الوادي والمتمثلة في كل من صحراء مصر الشرقية والغربية ، وبين تلك السلاسل الجبلية الانكسارية الوعرة المتمثلة في جبال البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء في الشرق . بل ويتميز كل نمط من هذه الأنماط بوجود تنوع واضح داخله أيضا ، فإقليم وادي النيل ودلتاه يمكن أن نميز بين جنوبه (الوجه القبلي)، وشماله (الوجه البحري) ، ولكل من القسمين عناصره الطبيعية والبيئية التي تميزه عن الآخر . وتختلف الصحراء الشرقية اختلافاً جوهرياً في طبيعة تركيبها وتكوينها وشكلها عن شقيقتها الصحراء الغربية ، ومن أمثلة هذا الاختلاف أن واحات مصر تتركز جميعها في الصحراء الغربية ، أما أوديتها الجافة فتتركز في الصحراء الشرقية . أما عن شبه جزيرة سيناء ـ والتي تمثل مساحتها نحو ٦%من مساحة مصر ـــ فجنوبها جبلي معقد ، وشمالها سهلي منبسط وممتد .

يضاف إلى ذلك وقوع الغالبية العظمى من مساحة مصر ضمن النطاق المدارى الجاف والحار أيضاً فيما عدا أطرافها الشمالية التي تشبه إلى حد كبير إقليم البحر المتوسط الحار الجاف صيفا ، والدافىء الممطر شتاء ، فيصيب هذه الأطراف قليل من الأمطار في فصل الشتاء ، مما يشجع على قيام حياة رعوية فقيرة نسبيا ، مع قليل من الزراعة .

من هنا كان لهذا التنوع البيئي دوره الواضح وانعكاساته الملموسة في السلوك الحضاري المصري ، فتعددت اهتماماته ، وأنشطته ، واختلفت باختلاف بيئته ، وبمدى تفاعله بعناصرها ، وتحايله وتكيفه معها ، بل وتسخيره لها في بعض الأحيان.

والحقيقة التي لا ينبغي أن تغيب عن الأذهان أن معظم عناصر المأثورات الشعبية (الفولكلور) ـ كغيرها من عناصر الإبداع ـ قد تأثرت بشدة نشأتها وانتشارها بالبيئة الجغرافية بالإضافة إلى وجود مجموعة من المؤثرات الأخرى ، كالمؤثرات الاجتماعية والتاريخية....فتعدد أشكال الحرف والصناعات البيئية في أقاليم مصر المختلفة شكل من أشكال التأثر البيئي ، واختلاف أشكال الملابس الأزياء باختلاف الأقاليم هي أيضا شكل من أشكال التأثر بالبيئة ، ولا نغالي إذا قلنا إن للبيئة الجغرافية أثرها الواضح على اختلاف عادات والطعام ، والشراب من منطقة إلى أخرى ، كما يظهر تأثير البيئة بوضوح على بعض العادات والتقاليد والمأثورات الشعبية الأخرى التي لا يتسع المجال لسردها .

على أنه ينبغي أن نعي حقيقة مهمة ، وهي أن التأثير البيئي الجغرافي على الإنسان وثقافاته لا يأتي منفردا ، وإنما تتفاعل جميع العناصر البيئة من ناحية ، وظروف الإنسان وحياته ، ومتطلباته ، وسلوكياته ، وتاريخه من ناحية أخرى ، وذلك لخلق عناصر الإبداع المختلفة ، غير أن هناك من هذه العناصر ما يتفوق على غيره في الخلق والإبداع .

من هنا يمكن القول بأن الأمثال الشعبية (كعنصر من عناصر الفولكلور) قد تأثرت في نشأتها بمجموعة من العوامل ، بعضها يغلب عليه الطابع البيئي الجغرافي ، والبعض الآخر يغلب عليه الطابع التاريخي أو الديني أو السياسي.....

وإذا كان هناك من يرى أن **" الأمثال الشعبية تمثل فلسفة وتاريخ شعوب "** أو أنها تمثل **" الفن الوحيد الذي يكشف عن مختلف التيارات الاجتماعية على المستوى الشعبي "** فهي أيضا تمثل المرآة الصادقة للعلاقة بين الإنسان وبيئته الجغرافية . وهذا

يعني أن الأمثال الشعبية وجه تاريخي وحضاري ، وآخر جغرافي ، فإذا كان التاريخ يهتم بالزمان ومتغيراته ، وأحداثه ، ومدى تأثيرها على الإنسان سياسياً واجتماعياً وحضارياً ، فإن الجغرافيا تهتم بالمكان ، ومدى تأثيره ـ وتأثره ـ في الإنسان ، ومن ثم في عاداته ، وتقاليده ، وسلوكياته ، وحرفه ، ومهنه ، وفنونه ، ومختلف نواحي الحياة الأخرى .

وتتعدد الأمثال الشعبية المهتمة بالبيئة الجغرافية المصرية بدرجة واضحة وهي نتاج تفاعل قديم ومستمر بين الإنسان والبيئة ، أوهي فلسفة شعب عاش على مر الزمان على رقعة من الأرض ، لها سماتها المتميزة ، فتأثر بها ، بل استطاع أن يؤثر فيها ، ويسبر غورها ، فكان للدور الجغرافي ، والبيئي أثر واضح في صياغة عديد من الأمثال الشعبية ، التي تحكي ، وتفسر، وتوضح مدى العلاقة بين الإنسان المصري وبيئته ، بل إن الأمثال الشعبية تستطيع وحدها أن تفسر تطور تلك العلاقة على مر العصور والأحداث . وهذا يؤكد ما قلنا ه آنفاً بأن التأثير البيئي الجغرافي على الإنسان وثقافته لا يأتي منفردا ، وإنما يتحد مع غيره من العناصر المساعدة على الخلق والإبداع .

هذا وسيبدأ الباحث بدراسة أثر البيئة الزراعية على الأمثال الشعبية ، مدركاً مدى هذا التأثير وأهميته في بيئة هي ـ في الحقيقة ـ عماد الحياة المصرية ، وأصل الحضارة بها. ويعد الباحث بإعداد دراسات منفصلة عن بيئات جغرافية مصرية أخرى ، ومدى تأثيرها على الأمثال الشعبية مثل البيئة البدوية ، والبيئة الساحلية ، وبيئة الحرفيين والصناع ، وغيرها من البيئات .

وبالطبع ، فإن لكل بيئة مذاقها الخاص في أمثالها الشعبية (وغيرها من عناصر الفولكلور المختلفة) ، ولا نغالي إذا قلنا إن التنوع البيئي المصري كان من أهم العوامل التي ساعدت على تنوع أشكال التراث الشعبي وتعدده .

الزراعة والأمثال الشعبية المصرية :

تحدثنا المصادر التاريخية عن الزراعة ، وأهميتها بالنسبة للحياة المصرية عامة في عهود قديمة بدأت بالفراعنة ، وامتدت حتى العهد العربي وما تلاه من فترات تاريخية شهدت الزراعة فيها نموا وتطورا ملحوظا . ومن خلال هذه المصادر يمكننا أن نتبين أهم سمات الزراعة المصرية القديمة ، وأهم أحوالها على مر العصور .

وبالطبع ، فقد أثرت الظروف الزراعية السائدة آنذاك تأثيراً واضحاً على الفلاح المصري : أعماله ، وعاداته ، وتقاليده ، وحياته اليومية .

ولكي ندرك مدى هذا التأثير، ينبغي أن نضع في الاعتبار أن الزراعة بشكلها المعروف حالياً تختلف كلياً وجزئياً عن الزراعة المصرية في عصورها السابقة (مع وجود بعض أوجه الشبه التي لا يلحظها سوى المتخصص) . وهذا أمر طبيعي فرضته مقتضيات التطور، فلم يعرف الفلاح القديم في زراعته سوى مجموعة من المحاصيل ، نطلق عليها الآن اسم "المحاصيل التقليدية "، ومعظمها محاصيل غذائية ، منها الحبوب ، ويأتي في مقدمتها القمح والشعير والذرة ، ومنها البقول مثل الفول والعدس والحلبة والحمص . كذلك عرف الفلاح المصري محاصيل الصناعة والدباغة ، ومن أهمها الكتان والقرطم والنيلة.

ولم يعرف الفلاح المصري من نظم الري سوى نظام واحد فقط ، وهو الري الحوضي . فقد كانت مياه النيل تغمر الأرض الزراعية في بعض أشهر الصيف " فترة الفيضان " ، ثم تخلف ورائها تربة مشبعة بالمياه ، وجاهزة للزراعة الشتوية ولذلك كان الفلاح يستعد لموسم الفيضان فيقسم الأرض إلى أحواض يغمرها الفيضان بمياهه خلال الموسم ، وتنحسر في نهايته ، وقد أثر ذلك تأثيراً واضحاً على الزراعة ، فقد أصبحت الزراعة الشتوية بمحاصيلها هي السائدة ولم تُعرف الزراعات الصيفية إلا في الأراضي المرتفعة التي لا تغمرها مياه الفيضانات ، وهي مساحات قليلة كانت تتذبذب ـ من عام لآخر حسب ارتفاع أو انخفاض مياه الفيضان . كذلك لم يعرف الفلاح المصري من أدوات الزراعة سوي تلك الأدوات البسيطة ، جميعها كان يعتمد على القوة العضلية للإنسان أو الحيوان ، فمن أدوات خدمة الأرض ، وتجهيزها للزراعة عرف الفلاح المصري منذ آلاف السنين " **المحراث البلدي** " ولتسوية الأرض عرف " **القصابية** " كما عرف " **البتانة** "وهي آلة أو أداة تستخدم لتخطيط الأرض ، وعرف **الفأس** وهي من أدوات العزق . أما عن آلات الري فقد عرف منها الفلاح المصري " **الشادوف** ، **والطنبور، النطال** " وهي آلات تعتمد جميعها في إدارتها على القوة العضلية للإنسان .أما عن السواقي بأنواعها المختلفة فقد اعتمد عليها الفلاح في جلب المياه مستعيناً

بالحيوان في إدارتها . وعن آلات الحصاد فلا يمكن أن نتجاهل أو ننسى **المنجل** بشكله التقليدي المعروف لدينا جميعا ، كذلك عرف الفلاح المصري كل من **آلة حش البرسيم** ، " **والمحصدة** " (لحصاد القمح والشعير) ، وهي آلات تعتمد على الحيوان في إدارتها. وأخيراً عرف الفلاح المصري من آلات الدراس والتذرية كلاً من " **النورج والمذراة** "

لقد استطاعت بيئة الفلاح بجميع عناصرها السابقة - رغم بساطتها - أن تكون مصدروحي وإلهام وإبداع ، فتعددت الأمثال الشعبية ، وتعددت وظائفها ، فالأمثال الشعبية إما أن تعبر عن نمط الحياة اليومية السائدة في فترات تاريخية سابقة ، أو أنها تعطي مجموعة من الحِكم والمواعظ التي تكونت نتيجة تراكم الخبرات على مر السنين ، أو أنها ترفع راية النصح والتوجيه والإرشاد ، بل والتحذير في بعض الأحيان . وهذا ما سوف نلاحظه في دراستنا للعناصر التالية في بيئة الزراعة المصرية ودورها الواضح في الأمثال الشعبية :

١	التقويم الزراعي .
٢	ري الأراضي الزراعية.
٣	التربة والسماد .
٤	الأدوات الزراعية .
٥	الحصاد .

أولاً : التقويم الزراعي.

التقويم هو حساب الزمن ، وتقدير الأيام والشهور والسنين . ولتقدير الوقت لابد من ظاهرة كونية ملفتة للنظر، ومتكررة ، ومنتظمة التكرار . ويبدو أن الشمس والقمر هما أبرز الظاهرات الكونية التي عرفها الإنسان منذ القدم ، ومن ثم اتخذها لتقويم وحساب الزمن . وقد اختلفت الأهمية النسبية للتقويمين الشمسي والقمري بأختلاف ظروف البيئة السائدة ، فلا شك أن التقويم القمري كان المفضل لدى سكان الصحراوات الحارة والجافة ، فالشمس كانت مصدر الحرارة القائظة ، بينما كان القمر مصدر الضوء وسط الظلام الدامس ، أضف إلى ذلك ما للقمر والنجوم معاً من أهمية قصوى لدى سكان الصحراء في حركتهم وتجارتهم وتعرفهم على الاتجاهات المختلفة .

أما التقويم الشمسي ، فهو المفضل لدى سكان المناطق المعتدلة ، والمناطق الزراعية نظراً لأن جميع حساباتهم يجب أن تعتمد على الشمس ، وهي بلا شك المؤثر الأول – إن لم يكن الأوحد - على مناخ الأرض ، إذ يعتمد ذلك على حركة الشمس الظاهرية وأثرها في حدوث ظاهرة الفصول الأربعة وبالتالي اختلاف درجة الحرارة ونظام سقوط المطر وكمياته باختلاف المواقع وباختلاف الفصول. كما يؤثر النظام الشمسي على تقسيم العالم إلى مناطق رطبة وأخرى جافة ، ويقسمه أيضاً إلى مواسم

مطيرة ومواسم جافة ، مواسم حارة وأخرى باردة..... كلها ظروف طبيعية لعبت الشمس دوراً كبيراً في حدوثها فيما يعرف بالمناخ ، فكان لابد من دراسة حركة الشمس ، وكان لابد من الاهتمام بالتقويم الشمسي ، ومعرفته ، ودراسته بكل بدقة .

لذلك كله كان من الطبيعي أن يعتمد الفلاح المصري القديم على التقويم القبطي* وهو تقويم شمسي - في تحديد مواعيد الزراعة والحصاد ، وفي التعرف على المواسم الزراعية المختلفة ، وأهم خصائصها المناخية. ولذلك كان من البديهي أن تكثر الأمثلة الشعبية التي مازالت منتشرة حتى الآن حول هذه الأشهر ومميزاتها الخاصة فيما يتعلق بشؤون الزراعة وظروف المناخ.

تبدأ السنة القبطية بشهر **" توت "** الذي يقابل الفترة من منتصف سبتمبر إلى منتصف أكتوبر تقريباً في التقويم الأفرنجي (الميلادي) .

وعلى الرغم من اختفاء التقويم القبطي تقريباً في وقتنا الراهن ، إلا أن آثاره مازالت باقية ، ومستخدمة سواء في شكل رسمي حيث يبدأ التقويم الزراعي الرسمي في مصر من شهر أكتوبر ، أو في صورة تراث تراكم على مر الأجيال ، وكذلك في صورة هذا الكم الهائل من الأمثال الشعبية ، بالإضافة إلى العادات والتقاليد الأخرى .

وإذا تناولنا الأمثال الشعبية التي تدور حول الأشهر القبطية والزراعة فإننا سوف نلاحظ مدى تأثير البيئة على الزراعة ، ومن ثم على هذه الأمثال .

١- بابة† ،‡

- **بابة ، زرعه يغلب النهّابة**
- **"بابة ، خّش واقفل البوابة**

يعبر المثلان عن حقيقة ثابتة ، وهي أن هذا الشهر هو شهر خير ورغد في العيش ، فيقلع السمسم ، ويحصد الأرز، والفول السوداني ، ويكسر القصب بغرض الإستخدام المباشر(العصير) ، كما يستمر جني القطن .

وتجهز الأرض لزراعة المحاصيل الشتوية المبكرة مثل البرسيم ، والكتان ، والفول . وفي نهاية الشهر تبدأ زراعة القمح والشعير. وهناك من يفسر المثل الثاني

---

* الأشهر القبطية إثنى عشر شهر متساوية الطول (٣٠ يوم لكل منها) وتبقى خمس أو ستة أيام تضاف في نهاية العام وتعرف بالنسيء .

† بداية

‡ معناه شهر "آبة" أي عيد الإله آمون في طيبة.

تفسيراً مناخياً ، فيذكر أن المقصود بالدخول هنا هوالاحتراس الشديد من رطوبة الجو ، وارتفاع درجة الحرارة . والمعروف أن اقتران الحرارة والرطوبة يساعد على كثرة الأوبئة والأمراض ، بالإضافة إلى الشعور بعدم الارتياح والضيق (محمد البقلي) غير أن الباحث يختلف مع هذا التفسير، إذ يتفق شهر **بابة** مع بداية أكتوبر ونوفمبر (من ١١ أكتوبر إلى ٩ نوفمبر). وتتميز هذه الفترة ببداية موسم البرودة .

ولذلك يرى الباحث أن المثل المذكور يذكر به التحذير من البرودة وعواقبها وليس الحرارة والرطوبة ويقولون أيضاً **" إن زعقت الكركيه إرم الحب وعليّه".** الكركي طائر معروف ، يهاجر إلى أرض مصر في شهر **"بابة".** ويتفق ذلك مع بداية زراعة الحبوب الشتوية (القمح والشعير).

٢- هاتور[§]

- **هاتور أبو الدهب المنتور**
- **هاتورللبرد دور**
- **إن فاتك زرع هاتور أصبر لما السنة تدور**

يمتد هذا الشهر من أوائل نوفمبر حتى أوائل ديسمبر . وتبدأ درجة الحرارة في الانخفاض التدريجي ليحل فصل الشتاء ببرودته ، فعلى سبيل المثال يبلغ متوسط درجة الحرارة الشهري في منطقة وسط الدلتا خلال هذا الشهر نحو ١٨درجة مئوية (محطة أرصاد طنطا). وفي الوجه القبلي يتراوح المتوسط الشهري خلال الشهر نفسه فيما بين١٩درجة في المنيا٢٢,٦ درجة في أسوان .

وفي هاتور تحصد الذرة الشامية في الوجه القبلي ، كما يستمر تقليع السمسم ، وحصاد الأرز في الوجه البحري ، هذا بالإضافة إلى استكمال زراعة المحاصيل الشتوية وخاصة القمح والشعير (الدهب المنتور) . ويفضل إتمام زراعة جميع المحاصيل الشتوية في هذا الشهر وإلا **"إن فاتك زرع هاتور اصبر لما السنة تدور "**

٣- كياك "كيهك "[**]

- **كياك صباحك مساك**

تتميز أيام الشتاء ـ وخاصة في شهور ديسمبر ويناير وفبراير – بقصر نهارها بالمقارنة بليلها ، ويرجع السبب في ذلك إلى حقيقة مهمة مؤداها أن الأرض تدور حول

[§] من"حتحور"آلهة الخصب والجمال.

[**] من "كاهاكا "أي اجتماع الأرواح ، وهو أحد الأعياد القديمة.

الشمس بمحور يميل عن خط الإستواء بمقدار ٢٣,٥درجة . ولولا هذا الميل في المحور لما حدثت ظاهرة الفصول الأربعة ، واختلاف ساعات الليل والنهار من فصل إلى آخر. ونتيجة لدوران الأرض حول الشمس ، تبدوالشمس لسكان الأرض وكأنها تنتقل شمالا إلى السرطان في ٢١يونية من كل عام . وتعرف هذه الفترة في نصف الكرة الشمالي بفصل الصيف الذي يبلغ قمته في ٢١ يونية ، ويتميز النهار في فصل الصيف بطوله على حساب الليل ، فيصل إلى ١٥ساعة ، بينما لا يزيد طول الليل على ٩ساعات فقط . وتعود الشمس مرة أخرى من مدار السرطان إلى خط الإستواء لتتعامد عليه في ٢١ سبتمبر (الخريف) وهنا نلاحظ تساوي الليل والنهار من حيث الطول (١٢ساعة) . وتستمر الشمس في الحركة الظاهرية صوب الجنوب لتصل إلى مدار الجدي وتتعامد عليه في ٢٣ديسمبر (الشتاء). ويتميز هذا الفصل بقصر نهار أيامه بالمقارنة بلياليه ، فيصل طول ليل أيام الشتاء إلى ١٥ ساعة على حساب النهار الذى لايزيد على ٩ساعات . وبعد ذلك تعود الشمس مرة أخرى لتتعامد على خط الإستواء في ٢١ مارس (الربيع) حيث يتساوى طول الليل والنهار مرة أخرى . وتعرف حركة الشمس هذه الحركة الظاهرية .

ويبدأ شهر كياك من ١٠ ديسمبر إلى ٨ يناير من كل عام . ولذلك تتميز أيامه بنهار قصير جدا، وليل طويل فما أن يحل الصباح حتى يولي مسرعاً ليبدأ مساء جديد وطويل . ولذلك يقولون في المعنى نفسه **"كياك شيل إيدك من غداك حطها في عشاك "** كناية عن قصر النهار فما يكاد الإنسان يفرغ من طعام الغداء ، حتى يبدأ في إعداد طعام العشاء.

ويتميز كياك بإتمام الزراعات الشتوية ، والانتهاء منها ، والتفرغ لخدمة الأرض ، إما عن طريق تسميد المحاصيل المزروعة ، أوتطهير الترع والمصارف بعد منع المياه عنها (السدة الشتوية) ، أوحش البراسيم واستحدامه في رعي الماشية.

٤- طوبة[††]

- **طوبة أبو البرد والعقوبة**
- **طوبة يخلي الصبية كركوبة**

[††] بمعنى الأعلى أو الأسمى ، وهو عيد القمح .

إن من أهم مايميز هذا الشهر البردوة الشديدة باعتبار قمة الشتاء في مصر (يناير) ولذلك فقدارتبطت الأمثال الشعبية فيه إلى حد كبير بالرودة وقسوتها حتى أصبح هذا الشهر مضرب الأمثال في هذا المجال .

ولذلك يقولون أيضا **"أبرد من مية طوبة"** ويطلق هذا المثل على الشخص ثقيل الظل ، فليس أدل على ثقل ظله ، ودمه من أنه أبرد من مية طوبة .

ومن أهم الأعمال الزراعية في هذا الشهر : خدمة المحاصيل الشتوية ، وحش البراسيم ، وكسر القصب للعصير ، وتصنيع العسل ، ،وتقليع البصل .

٥- **أمشير** ‡‡

- **أمشير يقول للزرع سِيْر ،الزرع القصير يحصّلْ الطويل**

يرتبط هذا المثل بالتحسن التدريجي في الأحوال الجوية بعد برودة وصلت إلى قمتها في ديسمبر ويناير . ويساعد الأرتفاع النسبي في درجة الحرارة خلال شهر أمشير (من ٨فبراير إلى ٩ مارس) على سرعة نمو النباتات القصيرة التى تأثرت ببرد الشتاء ، ولذلك فإن هذا الشهر يتميز بقيام الفلاح المصري بعدة أعمال ، أهمها بدء تقليع البصل الشتوي من أرض الوجه القبلي ، ،وذلك لتمام نضجه ، كما يكسر القصب لمصانع السكر ، وفي الوجه البحري يكسر القصب للعصير وتصنيع العسل ، كمل يتميز هذا الشهر بتجهيز الأرض لزراعة المحاصيل الصيفية مثل الذرة الرفيعة والقطن المبكر .

ويقولون أيضا في المعنى ذاته**"أمشير يقول للزرع سِيْر بلا تعسير".** وكذلك يقولون**"أمشير أبو الزعابيب الكتير "**

فأما عن الزعابيب فهذا أمر طبيعي في هذا الوقت من السنة ، إذ يقابل شهر أمشير في التقويم القبطي أوائل فبراير وأوائل مارس في التقويم الميلادي ، وتتميز هذه الفترة بهبوب مايعرف برياح الخماسين ، التي تسبب نشاطاً ملحوظاً للرياح المثيرة للأتربة وللرمال نظرا لأنها تهب من الصحراء.

أما عن أصل قولهم **"الفعل لطوبة والأصل لأمشير"** وأيضا **"أمشير يقول لبرمهات عشرة مني خُدْ ، وعشرة مني هات "** وأيضا **"قالت المِعْزَةُ لطوبة : فوتي ياطوبة ما بلِّيتي لي عرقوبة ، فقالت لها بُكرة أستلف عشرة من أخويا أمشير يِخلُّو جلدك على الكوم نشير "** ، نقول أما عن أصل هذه الأمثال فيرجع إلى إدراك الفلاح المصري إدراكاً جيدا نتيجة الخبرة والتعلم بالملاحظة والأستنتاج أن المناخ المصري

‡‡ ومعناه شهر "مشير " إله الريح والعواصف .

بطبيعته يتميز ببعض التقلبات في هذه الفترة من السنة ، ولذلك لاتمنع الظروف من أن يمتد برد طوبة إلى جزء من أمشير ، ولاتمنع الظرف أيضا من أن تمتد من أمشير إلى برمهات ، وهوشهر الربيع.

٦- **برمهات** §§

- **برمهات روح الغيط وهات**

يتفق برمهات مع شهر مارس وبداية الربيع بمايتميز به من كثرة الأزهار والثمار ، فيحصد الفول والعدس والحمص ، ويستمر تقليع البصل ، وكسر القصب لمصانع السكر ، وحش البراسيم للرعي . كذلك تتنوع وتجود زراعة الخضراوات ، وتعطي محصولا وفيرا نظرا لارتفاع درجة الحرارة بعد عدة أشهر من البرودة . والمعروف أن الخضراوات أكثر أنواع المحاصيل الزراعية حساسية للبرودة والصقيع الذي يميز ليالي الشتاء الباردة ، وعلى الرغم من أن معظم الخضراوات تزرع في مصر على مدار العام ، إلا أن مساحة النوع الواحد وإنتاجيته تختلف من فصل إلى آخر ، فتؤكد الاحصاءات أن الفدان المزروع بالطماطم الشتوى ينتج نحو ٦,٥ طن ، أما فدان الطماطم الصيفي فينتج نحو ١٣طنا ***. كذلك فإن فدان الخيار الشتوي لاتزيد إنتاجيته على ثلاثة أطنان فقط ، في حين تتضاعف إنتاجية الفدان من الخيار الصيفي لتصل إلى نحو سبعة أطنان

إذن : في برمهات روح الغيط وهات

٧- **برموده** †††

- **برموده دُقْ العمودة**
- **برموده دقوا الشعير بالعمودة ولايبقى في الغيط ولا عودة**

يتميز شهر برمودة ببداية نضج عدد كبير من المحاصيل الشتوية ، ومن أهم هذه المحاصيل الشعير ، أما القمح فيوشك على النضج ، ولذلك لايحصد في هذا الشهر إلا في حالات معينة وهي ارتفاع درجة الحرارة عن معدلاتها الطبيعية مما يعجل بالنضج المبكر .

---

§§ ينسب إلى الفرعون " أمنحتب "

*** متوسط الفترة من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٨٩

††† من " رنودة " أو " رنوته " آلهة الحصاد

وفي برمودة تجهز آلات الحصاد وآلات الدراس ، سواء الحصاد وتذرية الشعير الجاهز للحصاد فعلاً ، أو القمح الذي سيتم نضجه بعد أيام قليلة.

ودق العمودة في برمودة كناية عن الاستعداد للحصاد والدرس . ودق العمودة إحدى عمليات الدراس ، فمن أساليب الدراس الشائعة قديماً – أي فصل الحبوب عن السنابل وتقطيع السيقان إلى تبن - طريقة الدق بالهراوة. كذلك يدق العمود الذي يستخدم كمحور ارتكاز يدور حوله النورج .

كذلك كان المحصول (القمح والشعير) ينشر على الأرض في شكل دائرة يتوسطها عمود تربط به المواشي التي تدور فوق المحصول لتفصل الحبوب عن عيدانها بحوافرها ، وهي من أكثر الطرق بدائية في الدراس (أنظر الآلة الزراعية) .

٨- بشنس [‡‡‡]

- **بشنس يكنس الغيط كنس**
- **بشنس أبو الشمس يكنس الغيط كنس**

تستكمل في هذا الشهر جميع أنواع الحصاد والدراس والتذرية ، سواء للشعير أو القمح ، كما يتم الانتهاء من حصاد الفول وتقليع الكتان والبصل ، وبدء زراعة المحاصيل الصيفية كالسمسم والذرة الصيفي والأرز، والانتهاء من زراعة الفول السوداني . وبذلك يكنس الغيط كنس . ويقال أيضاً **"أكنس البيت كنس"** كناية عن الاستعداد بتنظيف المخازن لتخزين المحصول الجديد .

٩- بؤونة[§§§]

- **بؤونة الحجر**

يتميز هذا الشهر (وهو يتفق مع أوائل يونية ويولية) بالحرارة الشديدة ، فتتمثل فيه قمة الحرارة في صيف مصر (يناير قمة البرودة في الشتاء) . كذلك كانت تنتشر أراضي الشراقي بدرجة كبيرة نظراً لنقص كميات المياه المنصرفة من نهر النيل ، حيث يصل تصريف النيل إلى أدنى معدلاته قبل الفيضان مباشرة . وإذا كان موسم الفيضان هو موسم الخير لمصر، فإن فترة ما قبل الفيضان كانت تعرف بالفترة الحرجة ، وهي الممتدة من شهر فبراير إلى شهر يونية (بؤونة) ، ويقصد بالفترة الحرجة هنا نقص كميات المياه من الاحتياجات الفعلية للزراعة وباقي الاحتياجات المائية الأخرى . زد على ذلك ارتفاع

[‡‡‡] من "خنسو" آلهة القمر

[§§§] من "باأوني" وهو وادي الحجارة بطيبة، أي عيد جبانة وادي الملوك.

الحرارة مما يزيد من معدلات البخر التي تساعد أيضاً على تقليص كميات المياه المتقلصة أصلاً.

وبالطبع فقد كان للسد العالي بعد ذلك دور واضح في اختفاء موسم الفيضان بداية من أسوان حتى مصب النيل في البحر المتوسط.

١٠- أبيب[****]

- **إذا دخل أبيب كان للماء دبيب**
- **أبيب طباخ العنب والتين**

في هذا الشهر تبدأ مياه الفيضان في الوصول إلى أرض مصر . ومن هنا كان أصل المثل الأول ، إلا أن الفيضان يكون في بدايته ، فتكون الزيادة في المياه خفيفة فيما بين نهاية شهر بؤونة ، ونهاية شهر أبيب ٠ وقد قدر متوسط ارتفاع الفيضان في هذه الفترة - في الماضي (أيام الفتح العربي) - فيما بين إصبعين إلى عشرة أصابع . كذلك يتميز هذا الشهر ببداية نضج كل من العنب والتين.

١١- مسري [†††]

- **مسري تجري فيه كل ترعة عسرة**

من الواضح طبعاً أن مسري (أغسطس) هو قمة الفيضان في مصر. ولذلك يمتلئ النهر عن آخره ، وتفيض المياه في السهل الفيضي . ولذلك أيضاً تمتلئ الترع بالمياه بعد أن غاضت عنها طول فترة التحاريق.

١٢- توت [‡‡‡]

- **لا خير في نيل ييجي في توت**
- **توت ري وإلا فوت**
- **توت هات الأنتوت (انظر الآلات الزراعية)**

إذا كان فيضان النيل قديماً هو مصدر الخير كله للفلاح المصري ، فقد كان أيضا من أهم مصادر الشقاء ، فمياه الفيضان إما أن تكون كافية لري جميع الأراضي الزراعية المتشوقة إلى كل قطرة ماء ، أو أنها قد لاتفي بحاجة تلك الأراضي ، وحالة ثالثة هي أن

[****] عيد الآلهة "أبيبي"ومعناه فرحة السماء .

[†††] من "مس را" أي بن رع آلهة الشمس.

[‡‡‡] من "تحوت" ويرمز له بالطائر المقدس أبو منجل الذي يأتي في بدء السنة مبشراً ببدء الزراعة.

تكون مياه الفيضان أكثر من اللازم . وإذا كانت الرياح قد تأتي بما لا تشتهي السفن ، فقد يأتي النيل بما لايشتهي الفلاح المصري .

لقد تميز نهر النيل بتذبذب مناسيبه وقت الفيضان من عام إلى آخر بصورة ملحوظة ، فتارة يفيض ، وأخرى يغيض[§§§§].

وبين النقيضين لم يقف الفلاح المصري مكتوف الأيدي ، بل كان يشارك في بناء الجسور حماية لأرضه من الفيضانات العالية ، وكان يطهر الترع والقنوات حتى يضمن وصول المياه إلى الأراضي الزراعية التي تغيض عنها المياه في الفيضانات المنخفضة ، كما وضعت المقاييس المختلفة بطول نهر النيل لحساب كميات المياه وسرعتها بطول المجرى .

ويبدأ الفيضان مع بداية شهر أبيب (أغسطس) ، فإذا ما جاء شهر مسري زادت المياه كثيراً. إلا أن معظم زيادة (قمة الفيضان) تكون قرب موعد وفاء النيل (١٥ أغسطس أو ١١ مسري). وبعدها تقل كمية المياه تدريجياً . وبانتهاء أغسطس وسبتمبر (مسري) يبدأ الفلاحون في تجهيز الأرض للزراعة ، وصرف الحياض وبذر البذور للمحاصيل الشتوية.

أما إذا ارتفع الفيضان عن الحد المرغوب أو طال أمده ، تفيض المياه ، وتغرق مساحات من الأراضي المزروعة بالمحاصيل الصيفية ، وت ملأ الحياض لمدة أطول من اللازم . ولذلك تتأخر الزراعة الشتوية بعض الوقت. ولذلك **لاخير في نيل ييجي في توت** ، أي لاخير في فيضان تفيض مياهه عن المرغوب فيه ، فتمكث في الأرض إلى نهاية شهر توت إلى جانب ما تحدثه من تدمير وتخريب ، وغمر للأراضي الزراعية ، وبالتالي تقلص المساحة المزروعة بالمحاصيل الشتوية.

ثانياً : ري الأراضي الزراعية

عرف الفلاح المصري منذ القدم أهمية مياه الري ، وقدرها حق تقدير . وكان ينتظر موسم الفيضان في شوق ولهفة ، كما كان ينتظر أيضاً بشي من الخوف والترقب . وقد تعددت الأمثال الشعبية التي تدور حول الري ، وأهمية المياه في حياة الفلاح المصري ، كما عبرت هذه الأمثال عن أحوال الري وظروفه ، وأفصحت عن بعض الأساليب المستخدمة في ري الأراضي الزراعية ، والتي مازال بعضها مستعملاً حتى الآن في معظم قرانا المصرية.

---

§§§§ مما يدل على تذبذب مياه النيل أن أعلى إيراد له وصل ١٨٨ مليار متراً مكعباً من المياه في عام ١٨٨٧م.

وعلى الرغم من أن هناك من الأمثال الشعبية ما أشاد بوفرة المياه وكثرتها ، إلا أنه في المقابل صيغت مجموعة من الأمثال الشعبية التي تدعو إلى الاقتصاد والتدبر في استخدام المياه وتنويع مصادرها . ومن الواضح أن موسمية المياه في مصر هي التي حتمت ذلك، فموسم فيض يليه موسم غيض . لذلك سنتناول في هذا الجزء دراسة تفصيلية لبعض الأمثال الشعبية التي تدور حول هذه المفاهيم.

- **الميّه في كعب البهيم**

إذا كان الغرض من هذا المثل هو رفض التكاسل والدعة ، فهو أيضاً يوضح حقيقة جغرافية مهمة . فكما سبق الإيضاح ، تفيض مياه النيل فى موسم الفيضان ، فيلجأ الفلاحون إلى غمر أراضيهم بالمياه بأسلوب يعرف باسم (الرى بالراحة) حيث إن منسوب مياه النيل فى تلك الفترة يكون أعلى من منسوب الأراضي الزراعية ، فتنساب المياه من الفتحات المعدة لذلك فى جسر النيل أو جسور الترع بسهولة ويسر (بالراحة) دون الحاجة إلى آلات لرفع هذه المياه . وتبدا بعد صرف مياه الفيضان زراعة المحاصيل الشتوية . أما المحاصيل الصيفية فكانت قليلة ومتذبذبة نظراً لانخفاض منسوب النيل لدرجة كبيرة عن الأراضى الزراعية بالإضافة إلى قلة المنصرف فيه من مياه . ولذلك كان الفلاحون يلجأون لرى المحاصيل الصيفية باستخدام بعض الآلات لرفع المياه من النيل لرى الأراضى الزراعية ، ومن أشهر وأقدم هذه الآلات الساقية وكانت تدار بواسطة الحيوانات حيث يتم جلب المياه من أحد الآبار المحفورة ، والتي تستمد مياهها من النيل ، أو أقرب ترعة ، أو حتى المياه الجوفية . ومن هنا كانت **"الميه في كعب البهيم"** ، من ينشدها، ويبذل الجهد من أجلها يجدها بسهولة ويسر ، ومن يتكاسل عن الجهد والعمل ينطبق عليه المثل القائل **"اقلع طاقيتك وفلّيها، كله فوتان في النهار"**

- **كل قناية مدايقة بميتها"**

إذا كان هذا المثل يحمل في طياته معنى المثل الشائع **"كل واحد فيه اللي مكفيه"** فهو أيضاً يوضح إلى أي حد يرتفع منسوب المياه في الترع والقنوات (القنايات)، حتى تفيض عنها المياه في قمة موسم الفيضان مما يجعل **" كل قناية مدايقة بميتها ".**

- **إن كنت على البير اصرف بتدبير**

إذا كانت الأمثال السابقة توضح الكثير عن وفرة المياه ، فهناك من الأمثال ما يدعو إلى التدبير والاقتصاد في المياه كمثلنا هذا. ولقد تعود الفلاح المصري منذ القدم أن يعطي كل زرعة من زراعاته نصيبها من المياه بسهولة ويسر . وهناك من يتهم الفلاح

بإسرافه في استهلاك المياه ، مما تسبب عنه مشكلات عديدة في التربة المصرية ، ومنها ارتفاع منسوب المياه الجوفية فيها نتيجة الإسراف في مياه الري . ولكن الحقيقة أن تكرار الري أكثر من مرة واحدة في السنة (بعد ظهور نظام الري الدائم) أدى إلى عدم وجود فترة لإراحة التربة ، والتخلص من المياه الزائدة فيها ، بل أخذت المياه الزائدة تتجمع عاماً بعد آخر، بينما كانت الأرض تترك في الماضي "شراقي" لعدة شهور ، تستعد بعدها لزراعة غنية وناجحة .

كذلك فإن أسلوب الري المتبع والمعروف لدى الفلاح المصري منذ القدم هو أسلوب الري بالغمر ، فتغمر الأرض الزراعية بالمياه حسب الحاجة ، ولذلك يزيد الفاقد بدرجة كبيرة نتيجة التبخر الشديد من ناحية ، والتسرب في التربة من ناحية أخري. ولذلك لايستفيد النبات إلا من حوالي ٥٠% فقط من مياه الري ، وتضيع ٥٠% هباء . هذا بالإضافة إلى تلك التكاليف المرتفعة نتيجة الاضطرار إلى حفر المصارف للتخلص من المياه الزائدة المتسربة في التربة.*****

وإذا كان الفلاح المصري قد تعود على أن يفتح ثغر في أحد الجسور فتنساب المياه سهلة (بالراحة)، فقد قام المسئولون عن الري في مصر بعد تفاقم مشكلة المياه الجوفية في التربة بالبحث عن وسائل متعددة للحفاظ على المياه، وعدم الإسراف في استخدامها، ومن أهم هذه الوسائل قيامهم بتخفيض مناسيب المياه في الترع لتكون أقل من مناسيب الأراضي الزراعية مما يضطر الفلاح إلى استخدام وسيلة لرفع المياه مثل الساقية قديماً، والطلمبات التي تدار إما بالوقود أو الكهرباء حديثاً. وبالطبع نظراً لارتفاع تكاليف تشغيل هذه المعدات يضطر الفلاح إلى الاقتصاد في استخدام المياه. وقد اثبتت هذه الوسيلة نجاحها على مر الأيام.

- **إن كنت فلاح ولك مقدرة ، علّي على فحلك من ورا**

والفحل هنا يقصد به قناة الري (ترعة- مسقى). والمعروف عند تصميم شبكة الري والصرف أن تحفر الترع في المناسيب المرتفعة لتنساب منها المياه لري الأراضي

***** ظهرت نظم حديثة للري مثل الري بالرش، والري بالتنقيط . وبتطبيق هذه النظم يستفيد النبات بنسبة من مياه الري تصل إلى ٩٠%، أي لا يزيد الفاقد على ١٠%، وقد بدأت مصر بتنفيذ بعض هذه الأساليب في الأراضي الجديدة ، وهي أراضي رملية ، وفي الغالب لا تصلح هذه النظم في الأراضي القديمة (الطينية) ولذلك سيظل الري بالغمر هو السائد لفترة طويلة قادمة وكل ما يحدث هو مجرد محاولات لترشيد استهلاك المياه في الأراضي المروية بالغمر.

الزراعية ذات المناسيب المنخفضة منها . أما المصارف فتحفر في المناسيب المنخفضة لاستقبال المياه الزائدة عن حاجة الري . كذلك يجب الحفاظ على انحدار تدريجي للمياه في قنوات الري . ويتناسب هذا الانحدار مع حجم القناة ، فكلما زاد حجم قناة الري، وبالتالي تصريفها وجب تقليل انحدارها، والعكس صحيح .

والانحدار الشديد للقنوات يؤدي إلى تآكل جوانبها وقيعانها ، ومن ثم يسبب مشكلات عديدة في شبكة الري . أما الانحدار البطيء فيقلل من كميات المياه ، ويحد من سرعتها . ولذلك أيضا مشكلات عديدة.

وتتميز دلتا النيل بانحدار تدريجي وبطيء في أجزائها الجنوبية والوسطى. ويقل الانحدار كلما اتجهنا شمالاً. ولذلك تعاني منطقة شمال الدلتا من مشكلة سوء الصرف، مما اضطر الدولة إلى إنشاء عشرات من محطات الصرف التي تعمل على رفع المياه من المصارف وإلقائها في البحر.

كذلك ساعدت اتجاهات الانحدار للدلتا على سهولة الري في جميع أجزائها ، ففي شرق الدلتا تنحدر الأرض انحداراً تدريجياً صوب الشمال الشرقي ، ولذلك تروي أراضي شرق الدلتا من فرع دمياط ، وفروعه المختلفة . وتأخذ شبكة الري والصرف اتجاهاً شمالياً شرقياً مع الانحدار العام . وفي وسط الدلتا يكون الانحدار نحو الغرب والشمال الغربي، ولذلك تعتمد أراضي وسط الدلتا أيضا على الري من فرع دمياط. أما في غرب الدلتا فالانحدار أيضا صوب الغرب والشمال الغربي . ولذلك تعتمد الأراضي الزراعية في غرب الدلتا على الري من فرع رشيد وترعه المختلفة . وهذا معناه أن فرع رشيد يروي غرب الدلتا فقط. أما فرع دمياط فيروي وسط وشرق الدلتا، وذلك اعتماداً على اتجاه الانحدار.

ولذلك ليس من الغريب أن يرفع الفلاح من منسوب أرضه عند الترعة ، ويخفض منسوبها في الاتجاه المعاكس. كما يجب عليه أن يقوم بتسوية الأرض جيداً حتى تنساب المياه فوقها بسهولة ويسر، وحتى تروي جميع أجزائها.

وفي المعنى نفسه يقولون **"الميّه تجري في الواطي".** وهذا أمر طبيعي يعتمد على قانون الجاذبية الأرضية ، كما أنه يؤكد على ضرورة حفر الترع بحيث تبدأ مرتفعة وتنتهي بانخفاض .

- **إذا سبقك جارك بالحرت إسبقه بالمحاياه**

يرتبط هذا المثل ارتباطاً وثيقاً بالحث على العمل ، وعدم الكسل ، ويوضح أيضاً بعض الأساليب المستخدمة في الزراعة والري ، فتجهيز الأرض الزراعية يتم أولاً بحرثها عدة مرات. كذلك يروي (يسقي) المحصول المزروع في بدايته ريّه أولى تعرف بريّة (سقية) المحاياه. ولذلك إذا سبقك جارك بحرث أرضه عليك بري أرضك قبل أن يبدأ بري أرضه.

- **الغرق ولا الشرق**

لاشك أن هذا المثل يعبر عن حب الفلاح المصري للنيل ، وترحيبه بفيضانه حتى ولو كان مغرقاً ، فهذا أفضل كثيراً من القحط والجفاف الذي يتسبب في تشقق الأرض الزراعية وعدم زراعتها ، وبقائها على حالتها قبل الفيضان حيث تعرف بالشراقي ، ومن ثم يجف الزرع والضرع معاً.

ثالثاً : التربة والسماد

من أهم عناصر الزراعة الناجحة وجود تربة خصبة معتنى بها . غير أن للتربة أنماط مختلفة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدى جودتها أو جدارتها. وتقسم التربة في مصر حالياً إلى عدة أنماط حسب جدارتها الإنتاجية ، كما تقسم حسب تركيبها الميكانيكي أو الكيميائي . وتعتمد هذه التقسيمات على عمليات معملية معقدة في الغالب .

إلا أن الفلاح المصري القديم قد برع هو الآخر في التعرف على أحوال التربة وأنواعها ومدى جودتها دون الحاجة إلى معامل وإحصاءات ، وإنما اعتماداً على الخبرة والتجربة التي تدعو دائماً إلى الملاحظة والاستنتاج والتأمل ، ويدل على ذلك تعدد الأمثال التي تؤكد حسن صحبة الفلاح لأرضه واستجابتها له مادام يعرف كيفية استخدامها ومعاملتها ويزيد من خصوبتها . ولنتناول بعض الأمثال التي تدور حول التربة وأنواعها ، وكيفية صيانتها والتعامل معها .

- **الزرع واحد لكن الأرض محطات**

فعلاً ، لقد صدق الفلاح المصري القديم ، فالزرع واحد ولكن الأرض محطات . فتقسم الأراضي الزراعية في مصر حالياً إلى أقسام حسب القدرة الانتاجية ، تبدأ بأراضي الدرجة الأولى حتى الرابعة . وتأتي في الدرجتين الخامسة والسادسة الأراضي البور سواء كانت متروكة أو مستغلة في أنشطة أخرى غير الزراعة .

وقديماً في (العهد العربي) قسمت الأراضي الزراعية المصرية إلى عامر، وغامر ، فالعامر هي الأراضي المنزرعة فعلاً ، والغامر تلك الأراضي القابلة للزراعة ، كذلك قسمت الأرض حسب قيمتها وجدارتها الانتاجية ، ومدى استجابتها لزراعة المحاصيل

إلى أقسام متعددة ، فأجودها **" الباق "** يليها **" ري الشراقي "** ثم **" البروبية أو البرابيت "** . ومن أنواع الأرض البور **"الشتونية".**

ويؤثر نوع التربة وجدارتها على أنواع المحاصيل وكمياتها ، كما يؤثر أيضاً على انتاجية المحصول الواحد . والجدول التالي يوضح اختلاف الإنتاجية لبعض المحاصيل من محافظة لأخرى ، وهو يؤكد الحقيقة أو المثل المذكور بأن الزرع واحد لكن الأرض محطات.

المحافظة	البرسيم طن للفدان	الذرة الشامية طن للفدان	القمح طن للفدان	الشعير طن للفدان
القليوبية	٢٨	١٦	١١	١٧
الجيزة	٣٢	١٤	١٣	١٣
الفيوم	١٦	١٣	١٠	١٠
أسوان	٨	١٠	٧	٨

- **أكبر المصايب زرع البرايب على البرايب"**††††††

سبق أن أكدنا علم الفلاح المصري بالتربة المصرية وأنواعها. وها هنا نؤكد حقيقة مهمةأ خرى ، وهي حرص الفلاح القديم على عدم استنزاف العناصر الغذائية من التربة . لقد عرف الفلاح مدى أهمية كل محصول يزرعه للتربة الزراعية ، فمن المحاصيل ما يفيد التربة ويزيد من خصوبتها كالبرسيم والفول ، ومنها ما يجهدها ويفقدها كثيراً من عناصرها الغذائية كالقطن والقمح . لذلك عرف الفلاح القديم ما نسميه الآن بالدورة الزراعية.

وتعتمد فكرة الدورة الزراعية على عدم تكرار زراعة محصول بعينه في مساحة ما من الأرض الزراعية في سنوات متتالية ، وإنما يجب أن تتنوع المحاصيل الزراعية في الأرض ذاتها ، والسبب في ذلك أن لكل محصول احتياجاته الغذائية التي يستمدها من التربة . كذلك لبعض المحاصيل صفة إكساب التربة بعض العناصر الغذائية . غير أن نظام الدورة الزراعية بشكله المعروف حالياً لم يعرفه الفلاح المصري إلا حديثاً ، فتدل الدراسات أن القدماء المصريين لم يعرفوا هذا النظام ، ولم يكونوا في حاجة إليه ، وذلك لأن النيل كان يفيض على أرض الوادي ، فيترك فوقها طبقة جديدة من الطمي والطين

†††††† المثل بالكامل " أكبر المصايب زرع البرايب على البرايب، وعزومة المرة والراجل غايب.

والمواد العضوية ، فتتجدد خصوبة الأرض ، فإذا أعاد الفلاح زراعتها بمحصول العام السابق لايلحظ ضعفاً أو نقصاً في الإنتاج . وبالطبع استمر هذا الحال حتى تم إدخال نظام الري الدائم في مصر في أوائل القرن التاسع عشر على يد محمد علي ، وذلك لحاجة البلاد إلى زراعة المحاصيل الصيفية كالقطن والقصب .

ولقد كان لتعدد زراعة الأرض أكثر من مرة في العام الواحد (الري الدائم) مع تكرار زراعة المحاصيل ذاتها سنوياً (وخاصة القطن في فصل الصيف) أن لوحظ تدهور انتاجية هذه المحاصيل (مثل القطن) التي تتكرر زراعتها في الأرض ذاتها لسنوات متتالية . ومن هنا بدأت فكرة الدورة الزراعية تطبق في مصر، فالأرض القوية التي تزرع قطناً على سبيل المثال يجب إراحتها وعدم زراعتها بالقطن في العام التالي ، ويسمى ذلك بالدورة الثنائية للقطن . وقد يمتنع عن زراعة القطن في الأرض متوسطة الجودة لمدة سنتين متتاليتين ويزرع في الثالثة ، ويعرف ذلك بالدورة الثلاثية للقطن . وهكذا يزرع القطن على فترات تزيد أو تقصر حسب جودة التربة . وينطبق ذلك أيضاً على جميع أصناف المحاصيل الأخرى . ولذلك فقد عرف الفلاح المصري أن **أكبر المصايب زرع البرايب على البرايب** . أي زرع القمح في الأرض نفسها لسنوات متتالية. والمؤكد أن عمر هذا المثل قد ارتبط بعمر تطبيق الري الدائم في مصر ، أي أنه من الأمثال التي وردت على ألسنة العامة من الشعب المصري في بدايات القرن التاسع عشر.

- **إن مات أبوك وأنت صغير عليك بزرع الباق شعير**

عرفت **" الباق "** في العهد العربي بأنها أجود أنواع الأراضي الزراعية وأعلاها سعراً ، و**" الباق "** أرض زراعية سبق زرعها بالبرسيم أو الفول أو ما شابه ذلك من المحاصيل التي تساعد على تثبيت عنصر الأزوت في التربة فتكسبها قوة وخصوبة .

أما الشعير فمن النباتات النجيلية ، ولايختلف كثيراً في صفاته عن القمح إلا في بعض الصفات التي لايلمسها سوى المتخصصون . ومن أهم هذه الصفات مقدرة الشعير الفائقة على تحمل ظروف الزراعة في الأراضي الرديئة (على عكس القمح) فيمكنه النمو في الأراضي الصحراوية ، والأراضي الملحية ، وأراضي الاستصلاح الجديدة . ولذلك ضربت الأمثال حول الشعير وسهولة زراعته ، وعدم حاجته إلى بذل مجهود كبير وخاصة إذا زرع في تربة جيدة **" الباق "**. ولذلك يمكن للصبي الصغير أن يزرع الباق شعيراً على اعتبار أن ذلك حسن تصرف منه إذ لم يقو عوده ويشتد لكي يتصدى لزراعة المحاصيل التي تحتاج إلى بذل المجهود حتى وإن امتلك أرضاً جيدة .

- **السباخ زرع الأهبل**

من أهم الخصائص الكيميائية للتربة المصرية (تربة الوادي والدلتا) غناها النسبي بالبوتاسيوم، وفقرها في النيتروجين ، كما تنتشر في التربة المصرية مركبات الحديد والكالسيوم والماغنسيوم والصوديوم . وتحتاج جميع الأراضي الزراعية في مصر وجميع المحاصيل إلى الأسمدة الأزوتية ، كما تتباين حاجة المحاصيل إلى الأسمدة الأخرى وهي الفوسفاتية والبوتاسية . ولذلك يضطر الفلاح المصري حالياً إلى الاعتماد على مجموعة من الأسمدة الكيماوية ، يضيفها إلى محصولاته حسب احتياجاتها.

وبالإضافة إلى الأسمدة الكيماوية ، يستخدم الفلاح المصري بعض المركبات العضوية (الأسمدة أو السباخ البلدي) لتحسين صفات التربة . وفي الماضي لم يعرف الفلاح سوى الأسمدة البلدية ، وكانت هي السائدة والمنتشرة في الاستخدام في جميع الأراضي الزراعية . ومعنى ذلك علم الفلاح ودرايته الكاملة بأهمية السماد البلدي ودوره في زيادة خصوبة الأرض الزراعية . ولذلك عرف الفلاح وبكل دقة كيف يعد السماد البلدي ليستخدمه كمخصب للأرض ، فكان يجمع روث الحيوانات ويخلطه بالطمي الناتج عن تطهير الترع والمصارف ، كما كان يضيف أيضاً إلى هذا الخليط كميات من القش وبقايا الجرن . ويتم حفظ هذا الخليط بوسائل متعددة لايتسع المجال لشرحها الآن ، ثم تستخدم في الأوقات المناسبة كسماد جيد يضاف إلى الأرض الزراعية فيساعد على زيادة الانتاج بدرجة ملحوظة . وهذا ما دعا إلى المبالغة في بيان أهمية السماد (السباخ) حينما أطلق الفلاح المصري قولته المأثورة **"السباخ زرع الأهبل"** .

وحتى نتبين أهمية السباخ أو السماد البلدي يجب أن نعلم أن أكوام السماد التي يجمعها الفلاح ، تحدث فيها تفاعلات حيوية وكيميائية ، تقوم بها البكتيريا. ويحتوى السباخ على البولينا ، وهي المادة العضوية الزلالية الموجودة في البول ، فبمجرد وجودها تبدأ بكتيريا النشادر في التغذية عليها وتحويلها إلى نشاد . وبعد تكوين النشادر تبدأ عملية التأزت ، وتقوم بها البكتيريا خاصة تحول النشادر إلى آزوت ، وهو أهم عنصر في السماد ، وأهم عنصر تحتاج إليه الأرض الزراعية.

هذا ، وقد تفنن الفلاح المصري القديم في تنويع مصادر الأسمدة البلدية فاستخدم مخلفات الصرف الصحي ، ومخلفات وبراز الطيور ، وبقايا السلخانات والمدابغ ، وغيرها من المواد غير النافعة ، فحولها إلى أسمدة نافعة وصالحة ومفيدة للإنتاج

الزراعي . والغريب أن الاتجاه السائد في الفترة الأخيرة في مصر هو توسيع دائرة الأسمدة الكيماوية ، على الرغم مما تسببه من مشكلات خاصة بتلويث البيئة ، هذا إلى جانب تلك الأموال الطائلة التي تستنزف لجلب هذه الكيماويات إما من الخارج أو بتصنيعها محلياً.

وإذا علمنا أن متوسط تكلفة الفدان (في الموسم الزراعي الواحد) من الأسمدة الكيماوية يزيد على ٢٠٠ جنيهاً (عام ١٩٩٥)، وإذا علمنا أيضاً أن الدولة قد رصدت حوالي ٢٦٠ مليون جنيهاً في الخطة الخمسية (٨٨/٧٨ ـ١٩٩٢/٩١) للتوسع في تصنيع الأسمدة الآزوتية فقط لأدركنا ضخامة المبالغ التي تستنزف لجلب هذه الأنواع نم الأسمدة ، علماً بأنه قد ثبت بالدليل القاطع تأثيرها على البيئة تأثيراً ضاراً ، فقد أثبتت الدراسات أن لبقايا الفوسفات والأزوت ـ على سبيل المثال- التي تنساب مع مياه الصرف ، أو تصل إلى المياه الجوفية أثر واضح في طبيعة هذه المياه . كما تؤثر أيضاً على الثروة السمكية وتساعد على تدهورها.

لذلك ظهرت أهمية العمل على ترشيد استخدام الأسمدة الكيماوية ، وزيادة كفاءة استعمالها ، والعودة إلى تكثيف استخدام الأسمدة العضوية والبلدية ، والغريب أيضاً أن من ينادي إلى العودة إلى استخدام الأسمدة العضوية هي الدول المتقدمة التي كانت تتأفف من استخدامها في الماضي .

ففي الولايات المتحدة الأمريكية ، ظهرت الدراسات التي تؤكد أهمية روث الماشية كسماد جيد للأرض الزراعية . وأكدت إحدى الدراسات أن الروث السنوي الناتج عن ٢٥ رأساً من رؤوس الماشية يمكن أن يستفيد منه نحو ٢,٥ فدان. بل إنه نتيجة للبحوث والدراسات المتعددة في أهمية روث الماشية كسماد للأرض الزراعية في كل من الولايات المتحدة واستراليا ، تعددت أساليب ووسائل الاستخدام للحصول على أعلى فائدة من هذا النوع من السماد ، بالإضافة إلى القضاء على بعض عيوبه ، فمن حيث الرائحة الكريهة التي يسببها استخدام روث الحيوان كسماد عضوي ، ومن حيث ضرورة خلطها بالتربة الزراعية خلطاً جيداً باستخدام بعض اللآلات والمعدات مما يؤدي إلى زيادة تكلفة استخدامها ، تمكن العلماء في الدولتين المذكورتين- بالإضافة إلى دول أخرى- من ابتكار أسلوب فريد في مضمونه يتلخص في إمكانية الاستفادة من إحدى حشرات الأرض وهي حشرة تعرف باسم " خنفساء الروث ".

لقد لاحظ العلماء شراهة خنفساء الروث في التهام روث الحيوان الطازج ، إذ أنها تطير عدة كيلومترات من أجل الحصول على الروث ، فتتغذى على السوائل فتبدأ في

تفتيت الروث إلى كريات صغيرة ، تدفعها عبر خنادق تحفرها في التربة. وبذلك فإن خنفساء الروث تعمل على خلط الروث بالتربة ، بالإضافة إلى دورها في التخلص الروائح الكريهة أيضاً . وتؤكد بعض الدراسات أن هذه العملية تؤدي إلى زيادة إنتاجية الفدان من أعشاب الرعي بنسبة تصل إلى ٥%. وقد قدر أحد العلماء في الولايات المتحدة الأمريكية الفوائد الاقتصادية التي ستعود على مربي الماشية إذا ما تم تعميم وتربية خنفساء الروث في المراعي ، واستطاعت أن تدفن كل روث الماشية.

لعل هذا المثال يوضح إلى أي حد بدأ العالم من حولنا يهتم بالأسمدة العضوية ونحن منغمسون في الكيماويات والأسمدة الكيماوية على الرغم من أن المصري قال قديماً **"السباخ زرع الأهبل".**

- **إللي ما يروح الكوم ويتعفر لما يروح الحلة يتحسّر**

يؤكد هذا المثل أهمية السماد البلدي ، فالكوم هنا هو كومة السباخ التي يعدها الفلاح لتسميد أرضه ، بل إن هذا المثل يوضح حقيقة مهمة يجب إدراكها وهي أن لاستخدام السباخ قواعد معينة ، إذ يجب أن يُحفظ تحت شروط معينة ولمدة تصل إلى عدة أشهر حتى يتحلل (بعد أن كان كتل صلبة) ويمكن بذره أو تعفيره فوق الأرض الزراعية . إذاً من لم يعفر أرضه بسماد قام بإعداده إعداداً جيداً لم يجد في النهاية قوت يومه ويقعد ملوماً محسوراً.

رابعاً : الآلات الزراعية

سبق أن بينّا أن الفلاح المصري القديم استخدم مجموعة من الأدوات الزراعية التي تساعده على أداء مهامه المختلفة . وتتنوع الأدوات الزراعية بتنوع العمليات الزراعية . غير أن جميع الأدوات التي عرفها الفلاح المصري حتى عهد قريب تشترك في صفة واحدة ، وهي إما أنها تعتمد في تشغيلها على القوة العضلية للإنسان أو على قوة الحيوان .

وحتى يمكننا إدراك مدى تنوع الآلات الزراعية ، ينبغي أن نوضح العمليات التي تجري في الأرض الزراعية والمحصول من بداية التجهيز للزراعة حتى الحصاد والتداول . وهذه العمليات هي :

١- خدمة الأرض وتجهيزها للزراعة (الحرث)
٢- تسوية الأرض .
٣- زراعة المحاصيل .

٤- إبادة الحشائش .
٥- التسميد .
٦- الري .
٧- حصاد المحاصيل وقطعها .
٨- الدراس .
٩- التذرية .
١٠- الغربلة وفرز الحبوب .
١١- مقاومة الآفات .

هذا ، وتعرف الآلات البسيطة القديمة لدى الفلاح المصري حتى الآن باسم " الآلات البدائية ". ومعظمها لايزال يستخدم حتى الآن وخاصة في المساحات الصغيرة نسبياً ، وذلك لسهولة استخدامها ورخص أسعارها . أما الآلات المتقدمة فيعرفها الفلاح باسم "الآلات الأفرنجية" وهي تستخدم في المساحات الواسعة .

وعموماً فإن الاتجاه السائد الآن هو تعميم استخدام الآلات الزراعية الحديثة. ويرجع ذلك إلى قلة الأيدي العاملة الزراعية نتيجة للهجرة المتزايدة من الريف إلى المدن ، بالإضافة إلى تدفق العمالة المصرية - وخاصة الزراعية - إلى بعض الدول العربية .

وما يدعو للدهشة والتعجب أن بعض الدراسات تؤكد أن هناك من الآلات الحديثة ما يضر بالأرض الزراعية ، ولايفيدها ، فعلى سبيل المثال استخدام المحراث الميكانيكي الذي تجره الجرارات الزراعية ، وكان له دور كبير في سرعة إنجاز عمليات الحرث ، إلا أن ثقل وزن الجرارات عمل على مرور الزمن إحداث ضغط شديد على الطبقة السطحية من التربة فاندمجت حبيباتها وساعدت على سوء الصرف بها . هذا بالإضافة إلى التلوث الناتج عن تزايد أعداد هذه المعدات في الريف المصري .

لقد كانت البساطة هي أهم سمات الفلاح المصري في ملبسه ، وفي مسكنه ، وفي حقله ، فاستخدم أبسط الأدوات التي تفي بالغرض دون تعقيد أو تقليد ، غير أن مغريات الحياة الحديثة والمدنية قد جرته في متاهاتها ، فراح يتخبط في دهاليزها لاهثاً وراء كل ما هو جديد دون أن يسأل أو يستفسر عن مدى احتياجاته لهذا الجديد .

نحن لسنا ممن يرفضون التقدم والاستفادة بالتطبيق العملي لكل منجزات العلم الحديث ، ولكننا نرفض التقليد الأعمى دون وعي أو تفكير . لقد كانت الآلة أهم سمة من سمات الزراعة في العالم الغربي والعالم الجديد بالذات (الأمريكتان واستراليا) نظراً لانخفاض أعداد السكان وبالتالي نقص الأيدي العاملة ، بالإضافة إلى اتساع الرقعة

الزراعية . أما في مصر حيث الكثافة السكانية المرتفعة جداً كان لابد من توظيف الأيدي العاملة الوفيرة - وخاصة في مجال الزراعة - خير توظيف ، بدلاً من التخلص منها والجري وراء آلة حديثة قد تهدم ولاتبني .

لقد عرف الفلاح المصري المحراث التقليدي البسيط ، وعرف الساقية والشادوف والطنبور، وعرف الحيوان كخير صديق في العمل الحقلي . وكان لهذا كله أثره الواضح في ظهور الأمثال الشعبية التي نتناول بعضها فيما يلي :

- **بكرة تيجي أيامك ياعوجة**

يقصد بالعوجة "المنجلة ، أو المنجل". ويقصد بها أيضاً"المحشّ أو المحشّة" فالمنجل أداة مصنوعة من الحديد المطروق ، وهي تشبه السكين ، ولكنها مقوسة على شكل هلال . والحافة الداخلية لها مسننة ليسهل القطع بها ، ولها يد خشبية ، ويستخدم المنجل في ضم أو حصد المحاصيل العشبية كالقمح والشعير والبرسيم . أما المحشة فهي كالمنجل ولكن حافتها الداخلية غير مسننة وإن كانت حادة. وتستخدم المحشة في حش البرسيم الأخضر والجاف . والفلاح هنا يعبر عن لهفته في انتظار موسم الحصاد. **وبكرة تيجي أيامك ياعوجة**.

- **طور الحرت مايتكممش**

من البديهي أن عملية الحرث هي إعداد الأرض للزراعة. ولذلك لايوجد في الأرض ما يخشى عليه الفلاح من مزروعات يمكن أن يلتهمها الحيوان أثناء عمله في الحقل . والكمامة يضعها الفلاح على فم الحيوان لمنعه من التهام النباتات وإتلاف المحصول . ولذلك فإن **"طور الحرت مايتكممش".**

ويقودنا هذا المثل إلى آلة من الآلات التي استخدمها الفلاح قديماً ، وكيفية إدارتها ، ألا وهي المحراث ، عرفه الإنسان المصري منذ آلاف السنين .

وتصنع جميع أجزاء المحراث - في أبسط أشكاله - من أخشاب الأشجار المتوافرة في البيئة المصرية . إلا بعض الأجزاء البسيطة وهي "السلاح، والطوق، والبلنجة" فإنها تصنع من المعدن . فالسلاح يصنع من الحديد المطروق بطول يتراوح فيما بين ٣٠-٥٠ سم ، ويثبت في نهاية الجزء الأساسي من المحراث وهو قطعة خشبية تعرف بإسم "السبخة" طولها حوالي ١٠٠سم ، وسمكها حوالي ٢٠سم من الخلف ، و١٥سم من الأمام . وتصنع عادة من أخشاب السنط أو التوت أو اللبخ لتحملها الرطوبة ، والاحتكاك .

أما الطوق والبلنجة فهما قطع حديدية مختلفة الشكل تؤدي بعض الوظائف المهمة في المحراث ، ومن الأجزاء المهمة أيضاً " القصبة ، والرمح ، والقوس ، والأنتوت " . أما الأنتوت فهو عبارة عن قطعة خشبية مستديرة (أو ماسورة من الحديد) بطول ٣٥سم وقطر ٣,٥سم ، وهي وسيلة توصيل بين بعض أجزاء المحراث . وقيل في الأمثال: **"توت هات الأنتوت"** ، أي إذا جاء توت بادر بخدمة الأرض وحرثها .

- **السروح بالبقرة ولا السحب بالبكرة**

يعبر هذا المثل عن مدى الجهد والعمل الشاق الناتج عن "السحب بالبكرة" أي رفع المياه بالشادوف. ولذلك **فالسروح بالبقرة أسهل كثيراً من السحب بالبكرة**.

لقد أكدنا سابقاً أن معظم الآلات والأدوات التي عرفها الفلاح اعتمدت في إدارتها إما على القوة العضلية للإنسان أو الحيوان . والشادوف من آلات الري القديمة التي اعتمدت في إدارتها على قوة الإنسان العضلية ، وإن كان من الآلات المهمة جداً في حياة الفلاح المصري ، خاصة عندما ينخفض منسوب المياه في قنوات الري عن منسوب الأرض الزراعية ، ويصعب الري بالراحة ، فيلجأ الفلاح إلى الري بالرفع باستخدام بعض الآلات كالساقية والطنبور والشادوف.

ويتكون الشادوف من عدة أجزاء أهمها ما يعرف **"بالعود"** وهو رافعة خشبية يتراوح طولها ما بين ٤-٦ أمتار حسب عمق الماء المراد الرفع منه .

ويعلق العود عند حوالي الثلث من طوله على قطعة خشبية مستعرضة **"الجازية"** مربوطة أعلى قائمين خشبيين مثبتان عند حافة مورد الماء. ويحمل الذراع الأقصر من الرافعة "العود" ثقلان من الطين الجاف (أو كتلة صخرية) للمقاومة ، أما الذراع الأطول المواجه للماء فيحمل قضيباً خشبياً مربوطاً يتدلى منه دلو، كان يصنع عادة من الجلد ، ثم استخدم بعد ذلك الدلو المصنوع من الصاج (جردل ، أو صفيحة).

ويعمل الثقل المربوط في الذراع القصير للعود على تخفيف جهد من يقوم برفع المياه من قناة الري ، غير أن عملية الري بالشادوف تتطلب بذل مجهوداً مضنياً وخاصة كلما اتسعت المساحة المطلوب ريها.

ويبدو أن الضعف والهزال كانا من أهم الصفات الجسمانية للفلاح المصري نتيجة معاناته وتسخيره ، بالإضافة إلى ما يقع على كاهله من ضرائب فاحشة وإتاوات ، مما يجعله يخرج في نهاية كل زرعة خالي الوفاض ، ويدل على ذلك أن أحد علماء الحملة الفرنسية قد أجرى مقارنة بين ما يمكن للفلاح المصري أن يرفعه من مياه الري في وحدة زمنية معينة ، بالمقارنة بالفلاح الأوربي إذا استخدم الأدوات ذاتها . وكانت النتيجة

المؤسفة حقاً أن الفلاح الأوربي بما يتميز به من قوة البنية ، يمكنه أن يرفع أضعاف الكمية التي يرفعها في الوقت نفسه وبالأدوات نفسها الفلاح المصري . وعموماً فقد أكدت الدراسة المذكورة أن الفلاح المصري يمكنه أن يرفع بواسطة الشادوف نحو ٢٩ لتراً من الماء كل ربع دقيقة من ارتفاع نحو ثلاثة أمتار .

- **صيّف بمحراتك ولا تصيّف بمنجلك**

التصييف هنا هو الخروج للحصاد ، فيتميز فصل الصيف بجمع الحبوب كالقمح والشعير . والمثل نوع من أنواع النصح والإرشاد . فالفلاح الواعي هو الذي يعمل حساباً لغده ، فيزرع ويجتهد ويكد مستعيناً بما يمكنه من أدوات وآلات ليجني ثمرة جهده وتعبه في النهاية . ولذلك يقولون **"من جد وجد ومن زرع حصد"**. إذن **"صيف بمحراتك ولاتصيف بمنجلك"** فما فائدة المنجل وأنت لم تخدم أرضك فلم تعطك محصولاً؟

والمحراث والمنجل - وقد سبق الحديث عنهما - أداتان من أدوات الزراعة ، الأول يستخدم في المراحل الأولى لإعداد الأرض للزراعة وتجهيزها ، والثاني يستخدم في آخر المطاف ، أي في جني المحصول .

- **خِف على بهيمك يطول عمره**

لئن كانت هناك حقيقتان متلازمتان في حياة الفلاح المصري ، هما الأرض والماء ، فإن هناك حقيقة ثالثة لا تقل عنهما أهمية ، ألا وهي حيوان العمل . لقد كان للحيوان دور بارز في حياة الفلاح المصري ، وخاصة فيما يتعلق بالعمل الحقلي ، أضف إلى ذلك أهمية الحيوان كمصدر أساسي لمنتجات الألبان ، ومصدرمهم لإنتاج السماد البلدي ، ومصدر لبعض أنواع الأصواف ، وإن كانت رديئة نسبياً . ولذلك يعبر المثل أصدق تعبير عن وجوب رعاية الحيوان والاهتمام به ، وعدم إثقال كاهله بالعمل ، حتى يحسن الأداء ، ويطول عمره .

وإذا تتبعنا الأعمال الزراعية العامة التي تتم في الأرض الزراعية بريفنا المصري قديماً لوجدنا أن متوسط ما يحتاجه الفلاح الواحد من عمالة أو حيوان يكون كالتالي وفقاً للعمليات الزراعية الرئيسية (المساحة فدان واحد).

من الواضح إذن أن الحيوان لا غنى عنه في العمليات الزراعية . وإن كان الفلاح المصري قد اتجه حالياً للآله ، فهذا لا يعني انخفاض قيمة وأهمية حيوانات الحقل ، بل إنها مازالت تمثل أهمية كبيرة ، وخاصة للمساحات الصغيرة التي يصعب معها استخدام

الآلات ، هذا بالإضافة إلى أن استعمال الآلة الحديثة ـ على علاتة ـ قد ساعد على توفير طاقة الحيوان ، وتحويلها من طاقة حركية إلى طاقة مختزنة في شكل لحوم وألبان .

لذلك كله كان للحيوان في الريف المصري دور بالغ الأهمية كطاقة محركة ، وكمصدر خير أيضاً . ولذلك كثرت الأمثال حول الأهتمام بالحيوان والحفاظ عليه ، وعدم تحميله مالا طاقة له به . فهم يقولون أيضاً: **"ظلم البهايم حرام"**، كما يقولون **"حمارك الأعرج ، ولا جمل بن عمك"**

الحرث	زوج من الماشية لمدة تتراوح فيما بين ثلاثة إلى خمسة أيام خسب نوع التربة وعدد مرات الحرث.
التزحيف‡‡‡‡‡	زوج من الماشية ½ يوم
التوطيد	زوج من الماشية ¼ يوم
التخطيط والتبتين	زوج من الماشية يوم كامل
زراعة الحبوب	زوج من الماشية ٦/١ يوم
نثر السماد والتقاوي	قوة بشرية
خدمة المحصول	قوة بشرية
ضم المحصول	قوة بشرية
نقل المحصول	ماشية (وغالباً كانت تستخدم الجمال)
الدراس	نورج يجره زوج من الماشية
التذرية	قوة بشرية

‡‡‡‡‡ التزحيف هو عملية يقصد بها تكسير الكتل المندمجة من الطمي بعد عملية الحرث وتسوية الأرض تسوية أولية. أما التوطيد فالمقصود به الضغط على جزيئات التربة لكبسها وأيضاً تكسير ما تبقى من الكتل المندمجة بغرض تقوية ورفع فاعلية الخاصة الشعرية لإمداد البذور بالرطوبة بعد بذرها. ويقصد بالتخطيط إقامة الخطوط في الأرض بعد حرثها وتزحيفها وتوطيدها لإعدادها لزراعة بعض المحاصيل. أما التبتين فهي عملية تتم لإقامة خطوط متعامدة على الخطوط السابقة لتقسيم الأرض إلى أحواض حسب المساحة المطلوبة تبعاً لطبيعة الأرض والمحصول واستواء السطح.

وإذا كنا قد أكدنا أن حيوانات الحقل تستخدم غالباً في إدارة بعض الأدوات البسيطة كالنورج والمحراث والساقية ، فيمكننا أن نؤكد أيضاً أن الحيوان قد استخدم بنفسه كآلة للعمل في الحقل بأكثر من شكل . فقد كان وسيلة الحمل والنقل الرئيسية ، فقام بنقل السباخ (السماد البلدي) من الحظائر للحقول ، وقام بنقل الأسمدة والبذور، كما قام بنقل المحصول والأتبان ، وغيرها من مخلفات الحقل. كذلك استخدم الفلاح الماشية كوسيلة لدرس الحبوب قبل أن يعرف الآلة . ويروي أحد علماء الحملة الفرنسية بأن الفلاح المصري لم يكن يعرف آنذاك طريقة استخدام المدقات لدرس الحبوب ، وإنما كان يقوم ببسط الحبوب كالقمح (في الحالة التي تحصد عليها) على شكل دائرة، لتدوسها أقدام الماشية التي تدور حول مركز الدائرة . وبهذه الطريقة يتم إخراج الحب من سنابله ، بالإضافة إلى تقطيع العيدان التي تستخدم بعد فصل الحبوب عنها كغذاء جاف للحيوان.

خامساً : الحصاد

يأتي موسم الحصاد ، ويكون الفلاح قد أضناه التعب والإرهاق من طول الانتظار بعد عمل دام عدة أشهر متواصلة دون توقف . وإذا كان موسم الحصاد هو موسم الخير والسعادة لمن تعب وبذل الجهد الكثير، فهو موسم تعاسة وشقاء لمن أهمل في حق أرضه ، ومن ثم في حق نفسه وأهله .

وتختلف مواسم الحصاد باختلاف أنواع المحاصيل ، فالقطن محصول صيفي يمكث في الأرض الزراعية نحو ثمانية أشهر تقريباً ، تبدأ من فبراير ومارس ، ويحصد في أكتوبر ، أما القمح فهو محصول شتوي يزرع في الفترة من أوائل أكتوبر حتى أواسط نوفمبر ، ويحصد في أبريل ومايو . أما معظم الخضراوات فتزرع على مدار العام ، ولذلك فهي لا ترتبط بموسم حصاد معين . ويقولون في هذا الصدد **" إزرع كل يوم تاكل كل يوم "** والمقصود هنا زراعة الخضراوات ، فجميع الخضراوات تقريباً تزرع على مدار العام ، سواء في العروة الشتوية أو الصيفية أو النيلية (الصيفي المتأخر) ، وإن اختلفت الإنتاجية من فصل لآخر، فمجموعة المقات (ومنها الخيار والقثاء والبطيخ) من الخضراوات التي تجود زراعتها في الصيف ، وتزيد انتاجيتها عن باقي فصول السنة ، كذلك تتضاعف إنتاجية الفدان من الطماطم الصيفي عن تلك المزروعة في العروة الشتوية . أما البسلة الشتوي فهي أكثر جودة وأعلى إنتاجية من البسلة المزروعة في باقي العروات . المهم ، العبرة هنا بوجود الخضراوات على مدار العام للاحتياج اليومي المستمر منها. ولذلك قالوا **"ازرع كل يوم تاكل كل يوم".**

وقبل أن ندخل في تفاصيل الحصاد والمحاصيل الزراعية ، وعلاقتها بالأمثال الشعبية ، يمكننا أن نذكر حقيقة مهمة أثرت على نمط الزراعة المصرية ، ألا وهي حجم المزرعة . فالزراعة المصرية تُعرف بالزارعة الكثيفة حيث تقل المساحة المزروعة ، ويزيد عدد السكان ، ولذلك يقل متوسط المساحة المزروعة أو ما يعرف بالحيازة الزراعية .

ويصل متوسط حجم المزرعة في مصر إلى عدة أفدنة . بل وتنتشر من المزارع أعداد لا حصر لها مما لا يزيد مساحته على بضعة قراريط . وقد ساعد على ذلك قوانين الإصلاح الزراعي المتتالية التي حددت أقصى ملكية زراعية ، فلم تزد عن مائتي فدان ، ثم انخفض الحد الأقصى إلى مائة فدان ، ثم انخفض مرة أخرى إلى خمسين فدانا . كذلك فإن قوانين الميراث المتبعة في مصر نتيجة تطبيق الشريعة الإسلامية قد ساعدت أيضاً على تقليص حجم الحيازة الزراعية ، نتيجة القيام بتقسيم التركات التي على شكل أراضي زراعية على الأبناء الذكور بالتساوي ، وللأنثى نصف نصيب الذكر . وللعلم فإن هناك ما يعرف بالزراعة الواسعة ، وهي تلك المنتشرة في مناطق العالم الجديد (الأمريكتان واستراليا). ويصل متوسط حجم المزرعة من عدة مئات إلى عدة آلاف من الأفدنة فالمساحة الزراعية مترامية الأطراف ، وعدد السكان قليل.

لقد نتج عن صغر حجم الملكية الزراعية آثار واضحة على الزراعة المصرية ، فحاول الفلاح – بل واجتهد في ذلك - أن يزرع الأرض أكثر من مرة في السنة واستغل كل جزء فيها ، فزادت الإنتاجية بدرجة واضحة . وقد أثر ذلك أيضاً على سلوك الفلاح المصري وعاداته وتقاليده ، فها هو يقول **"قِل م الأرض واخدم"** وهذا أصدق الأمثال على تعود الفلاح المصري على زراعة المساحات الصغيرة ، والتفاني في خدمتها ، ومن ثم الحصول على الانتاج الوفير . ولقد ساعد على ذلك بل وأكده عدم وجود آلات متقدمة تساعد الفلاح في زراعة وخدمة المساحات الواسعة ، فوضع كل همه في تحسين الانتاجية ، والتوسع الرأسي متناسياً تماماً فكرة التوسع الأفقي التي كانت ترتبط أساساً بكمية المياه في موسم الفيضان ، وخاصة أن التحكم في النيل لم يكن بالقدر الذي يسمح في اتخاذه كأساس لأي توسع أفقي في المساحة الزراعية نظراً لتذبذبه وعدم انتظامه من عام لآخر.

- **إن كان زرعك استوى بادر بحصده**

وإذا كان الفلاح ينتظر نتيجة صبره وعمله وكده ، فذلك أمر طبيعي بعد طول هذا العناء . إذن من حقه أن يقول **"إن كان زرعك استوى بادر بحصده"** فالمبادرة بالحصاد

تعني شيئين : أولهما سرعة لهفته على حصد جهده وعرقه ، وثانيهما ، المبادرة في رفع المحصول قبل أن يتلف ، فإذا تأخر حصاد القمح أو الشعير على سبيل المثال عن موعدهما ، انفرط الحب وتعرض للضياع ، هذا إلى جانب ما يفقده المحصول من كميات لا يمكن تجاهلها بواسطة الطيور وخاصة العصافيرالتي يعمل لها الفلاح ألف حساب ، ويقول في ذلك **" إللي يزرع ما يخافش من العصفور"** فالمزارع الناجح يجب عليه أن يبحث عن كافة السبل والوسائل للتخلص من هذا العدو اللدود ، فيجب عليه أن يواجهه ولا يخشاه .

كذلك هناك عديد من المزروعات يجب أن تحصد قبل تمام نضجها ، وإلا أضيرت ببقائها في الأرض . ومن أمثلة ذلك بعض الفواكه ، فالموز يقطع من أشجاره ولا يصبح صالحاً للاستعمال إلا بعد تخزينه تحت ظروف معينة مدة من الوقت . ولم ينضج طالما كان معلقاً في شجرته . كذلك ينصح المخصصون بقطف ثمار بعض الخضراوات كالطماطم ، وبعض الفواكه كالفراولة، قبل تمام نضجها حتى لا تفسد أثناء نقلها من الحقول إلى الأسواق ، نظراً لأنها تصبح عند تمام نضجها غضة سريعة العطب . إذن **"إن كان زرعك استوى بادر بحصده".**

- **اللي ينام في جرنه يستلف قوته**

يؤكد هذا المثل حقيقة مهمة ترتبط بحرص الفلاح على العمل والمثابرة وعدم التكاسل ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد، ومن تكاسل وداعب النوم جفونه فلا سبيل لكسب قوته ، وإنما السبيل الوحيد هو مد اليد لطلب العون من الجيران ، وفي ذلك إذلال وتحقير، فاليد العليا خير من اليد السفلى ، ويتنافى هذا المثل مع مثل سابق هو **"اقلع طاقيتك وفليها، كله فوتان في النهار".** غير أن هناك من يرى أن المخاطب هنا هو الأجير الزراعي الذي لا يهمه سوى الحصول على أجره اليومي مع بذل أقل جهد ممكن. وبالطبع ليس للأجير لهفة على حرثه وبذره ، مثلما تكون لهفة الفلاح صاحب الأرض .

- **الزرع زي الأجاويد يشيل بعضه**

إذا كانت الظروف تختلف من حقل إلى آخر ، وبالتالي يختلف حجم الإنتاج مع تشابه نوع المحصول ، فإنه في الحقل الواحد أيضاً قد يختلف الإنتاج نتيجة لبعض الظروف ، فمن المشاهد المألوفة أن مزروعات أطراف الحقل تتميز بأنها أفقر من باقي أجزاء الحقل نظراً لتطرفها ، وبعدها عن مياه الري ، أو باقي عناصر خدمة الأرض كالأسمدة والمبيدات. كذلك يلاحظ أن الأرض إذا ما تم تسويتها بإحكام فإن ذلك يؤثر في

عدم انتظام كميات مياه الري في جميع أنحاء الحقل ، ومن ثم يظهر نوع من عدم التجانس في الحجم بين النباتات المزروعة بالحقل ، بل تظهر بعض البقع الفقيرة المتناثرة هنا وهناك لعدم وصول مياه الري إليها ، أو حتى زيادة مياه الري إلى درجة التشبع ، ومن ثم اختناق جذور النباتات في هذا الجزء من الحقل دون غيره.

كل هذه الأمور هي التي جعلت **"الزرع زي الأجاويد يشيل بعضه"** فمنه الغني القوي ، ومنه الفقيرالضعيف . في نهاية الأمر سيتم حصاد الحقل بأكمله دون تفريق بين قوي وضعيف.

قائمة المراجع

إبراهيم شعلان ، الشعب المصري في أمثاله العامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية ، مركز الأهرام للترجمة والنشر، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦.

الجمعية الجغرافية المصرية ، المجلة الجغرافية العربية، العدد الثامن عشر، ١٩٨٦.

زهير الشايب (ترجمة) وصف مصر، تأليف علماء الحملة الفرنسية ، الحياة الاقتصادية في مطلع القرن الثامن عشر، الجزء الأول (الزراعة)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

سلسلة تقارير مجلس الشورى ، التقرير رقم ٣٣ ، قضايا البيئة والتنمية في مصر(المياه والصرف الصحي) مطابع مؤسسة دار الشعب.

سعيد أحمد عبده ، انتاج واستهلاك الأسمدة في مصر ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٩٠.

سليم عرفات المبيض ، الجغرافيا الفلكولورية للأمثال الشعبية الفلسطينية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣.

سيد مرعي ، الزراعة المصرية ، وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي ، ١٩٧٠.

عبد العال الشامي ، نظم الري والزراعة في مصر الإسلامية ، آداب القاهرة.

محمد قنديل البقلي ، الأمثال الشعبية ، سلسلة كتابك ، دار المعارف، كتاب رقم ٤٤، ١٩٧٨.

منظمة الأغذية والزراعة ، مجلة الزراعة والتنمية (سيريز) العدد ١٧ ، (مجلد ١٧- عدد ١) يناير/ فبراير ١٩٨٤.

نعمات أحمد فؤاد، النيل في الأدب الشعبي، المكتبة الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣.

نصر السيد نصر، جغرافية مصر الزراعية (دراسة كمية كارتوجرافية)، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٨.